البَابُ الثانى

الأصمعى الراوية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

رواية اللغة

رواية اللغة – آثار الأصمعى – التعريف ببعض هذه الآثار

كانت تنتهى رواية اللغة فى عصر الأصمعى إلى رجالها الثلاثة : أبى زيد الأنصارى ، وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، وأبى سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ؛ واشتهر كل واحد منهم فى ناحية ، وعبر عن ذلك المبرد فقال :

(كان أبو زيد أعلمَ من الأصمعى فى النحو ، وكان أبو عبيدة أعلمَ من الأصمعى بالأنساب والأخبار ، وكان الأصمعى بحرًا فى اللغة لا يُعرف مثله فيها وفى كثرة الرواية وكان دون أبى زيد فى النحو)[1] :

أما فى ناحية الكم فيقول ابن رشيق : كان الأصمعى يتكلم فى ثلث اللغة ؛ لأنه كان يُضَيِّق ولا يجيز إلا أصح اللغات ويلح فى دفع ما سواه[2] : ذلك أن بعض علماء اللغة قد وقفوا عند حد السماع يلتزمون به ولا يجيزون غير اللغة التى وَعَتْها أسماعُهم ، وكان على رأس هذا الفريق أبو عمرو بن العلاء أستاذ الأصمعى : فقد كان أشد تسليمًا للعرب[3] وأكثر اطمئناناً إلى القدامى منهم : عبر عن ذلك الأصمعى فقال : جلست إلى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامى – ويتردد أمام المُحْدثين وإن أعجب بشعرهم ، وكان يعتبرهم مُوَلَّدين بالإضافة إلى القدامى .

حمل الأصمعى لواء هذا المذهب بعد وفاة أبى عمرو ، وأشار ابن جنى إلى موقف متشدد

---

(١) إنباه الرواة ٢ : ٢٠١ .

(٢) العمدة ٢ : ٥٧ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ١٥ .

من مواقف الأصمعى فى الباب الذى عقده فى كتاب الخصائص عن قياس اسم المكان والمصدر على وزن المفعول فى الرباعى فقال : (قال أبو حاتم : قرأت على الأصمعى فى جيمية العجاج :

جَأْباً ترى بليتِه مُسَحَّجاً[٤]

فقال : تليله (أى عنقه) فقلت بليته ، قال : هذا لا يكون ، فقلت : أخبرنى به من سمعه من فلق فىّ رؤبة[٥] : أعنى أبا زيد الأنصارى ، فقال : هذا لا يكون ، فقلت : جعله مصدراً أى تسحيجًا ، فقال : هذا لا يكون ، فقلت : فقد قال جرير :

ألم تعلم مسرّحى القوافى فلا عيًّا بهن ولا اجتلابا

أى تسريحى ، فكأنه أراد أن يدفعه ، فقلت له : فقد قال الله عز وجل : (ومزقناهم كل ممزق) فأمسك[٦] .

كانت الدراسة اللغوية تجرى بأقصى نشاطها عند أصحاب القياس ، والأصمعى قانع برأيه ، وبالالتزام بالسماع عن العرب وكأنه أراد بطالب اللغة أن يعرف مفرداتها وصيغها عن طريق السماع وحده ، وفى رأينا أن مذهب السماع كان من الممكن أن يكتفى به لو أن اللغة كانت لأهلها فحسب ، أما وقد غزت العربية تلك الأقطار التى دخلها الإسلام ، فكان القياس هو السبيل لمعرفة العربية لتعذر جمعها واستقصائها على سبيل الحصر. لهذا – رأى بعض الرواة – وقد لاحظوا أن أوجه النشاط الفكرى أخذ يستعين بالقياس فى تذليل قضاياه – رأوا أن يفيدوا من هذا فى تبويب اللغة تحت كليات عامة بالرغم مما بها من تراكيب تنفر من القياس،ومن الدوافع التى ألزمتهم هذا المسلك أن كثرة كاثرة من طلاب اللغة كانوا من الموالى ، أو ممن ليسوا عَرَباً بالأصالة والمَرْبَى ، فكان لابد من وضع اللغة تحت كلياتٍ مَقِيسَةٍ ؛ ليسهل تناولها .

بدأ هذا المذهب عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى ، وكان ممن يشارك فى علوم القرآن ، واللغة ، والنحو ، يصفه ابن سلام بأنه أول من بعّج النحو ومد القياس والعلل[٧] ؛ ولكن

---

(٤) الجأب : حمار الوحش – البليت : صفحة العنق – التسحيج : الخدش .

(٥) فلق الفم : منفرج الفم .

(٦) الخصائص ١ : ٣٦٧ .

(٧) طبقات فحول الشعراء ١٤ .

هذه الدعوة – شأن كل جديد – وجدت معارضةً من بعض علماء اللغة كأبي عمرو ، والأصمعي ، ومن بعض الأعراب والشعراء الذين وقفوا يسخرون من ابن أبي إسحق ، كان ابن أبي إسحق يعيب على الفرزدق بعض ما جاء في شعره مما لا يجرى على سنن العربية في مقاييسها المطردة ، ويسأله بعد أن سمع منه :

وعضّ زمانٍ يا بن مروان لم يدع من المال إلا مُسْحَتاً أو مجلَّفُ

على أي شيء ترفع مجلف ؟ فيقول له الفرزدق : على ما يسوؤك وينوؤك[٨] ويتعمد حين يهجوه ألاّ يجرى هذا الهجاء على طريقة العربية المطردة فيقول :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فلا يجيبه عبد الله بهجاء مقابل ، وإنما يعيبه أن خرج على العربية ، فيقول له : لقد لحنت أيضاً في قولك مولى مواليا ، وكان ينبغي أن تقول : مولى موال[٩] ولاحظ الفرزدق أن أكثر ما يغضب له الحضرمي إنما هو سماع شيء يجرى على غير القياس مما يعقد مهمته ، فكان الفرزدق يلغز بالأبيات ويأمر بإلقائها عليه[١٠] ، ويستند في مسلكه هذا إلى أنه عربي خالص العروبة ، وأن عليه أن يقول وعلى الآخرين أن يقعّدوا ! .

وكان رؤبة وأبوه ممن يلغزون في رجزهم ، فيوقعان أصحاب القياس في الحيرة والتردد ، ولا يرى القياسيون بدًّا من اتهامها : ذكر ذلك ابن جنى فقال : كان قدماء أصحابنا يتعقبون رؤبة وأباه ويقولون : تهضّما اللغة وولّداها وتصرّفا فيها غير تصرّف الأقحاح فيها[١١] وقال السيوطي في الاقتراح : إن رؤبة وأباه كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها[١٢] .

ولكن سرعان ما استجاب لهذا المذهب بعض علماء اللغة كعيسى بن عمر الثقفي ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وأبي زيد الأنصاري ، وصادف هوى في نفوس المجددين كبشار بن برد الشاعر ، وكان من أصحاب النزعة العقلية وأحد المتكلمين ، ويصفه الجاحظ بأنه من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع[١٣] فقاس اللغة ، وتصرّف فيها ،

---

(٨) نزهة الألبا ٢٥ .
(٩) نزهة الألبا ٢٤ .
(١٠) الخصائص ١ : ٣٦٩ .
(١١) الخصائص ٣ : ٢٩٨ .
(١٢) الاقتراح ٢٨ .
(١٣) الأغاني ٣ : ١٤٥ .

وأتى بألفاظ وتراكيب لم تسمع عن العرب ، وكان من عادته كما يحكى أبو الفرج أن يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بأشياء لا حقيقة لها[١٤] : لاحظ بشار أن العرب تستعمل (فَعَلَى) فى قولهم (جمزى) للدلالة على السرعة فقاس على ذلك وقال :

والآن أقصر عن سمية باطلى وأشار بالوَجَلَى علىَّ مُشيرُ

وأنشد أيضاً :

على الغَزَلَى منّى السَّلَام فربما لهَوْتُ بها فى ظل مخضلة زهر

ولم يسمع عن العرب وَجَلَى ولا غَزَلَى ! وأخذ الأخفش يعيبه على هذا المسلك ويقول : ليس هذا مما يقاس إنما يعمل فيه السَّماع[١٥] .

كان القياس يتّسع على هذه الصورة ، والأصمعى ينفرد عن الآخرين ولا يجيز القياس ، وكثيرًا ما كان يتفق أبو عبيدة وأبو زيد فى شىء يقيسانه ويتوقف الأصمعى ، بل لم يكن يروى إلا عن عربى خالص العروبة لا يخالط لسانَه فسادٌ : يقول أبو حاتم السجستانى : سألت الأصمعى : أتقول فى التهديد أبرق وأرعد ؟ فقال : لا ، ولست أقول ذلك إلا أن أرى البرق وأسمع الرعد ، قلت : لقد قال الكميت الشاعر :

أبرق وأرعد يا يزيد م فما وعيدك لى بضائر

قال : الكميتُ جرمقانى من أهل الموصل ليس بحجة ، ولكن الحجة هو الذى يقول :

إذا جاوزَت من ذات عرق ثنية فقل لأبى قابوس ما شئت فارعد

وهو شاعر جاهلى ، وشاعرك هذا متأخر لا يؤخذ بقوله قال أبو حاتم : فأتيت أبا زيد الأنصارى ، وقلت له كيف تقول من البرق والرعد فعلت السماء قال : رعدت وبرقت . قلت فمن التهديد ؟ قال : رعد وبرق – وأرعد وأبرق ، فأجاز اللغتين ولم يجز الأصمعى إلا لغة واحدة .

هذا الموقف الذى وقفه الأصمعى ، وأجاز فيه لغة واحدة – لا يشير إلى ضعف الرواية الأخرى ، إنما يوحى بأن الأصمعى لم يسمعه من عربى خالص العروبة ، ولا يغير من صحة الرواية ألا تكون انتهت إلى سمع الأصمعى ، وإنما هو التشدد والوقوف عند حد السماع وحده : فلقد جاء أعرابى محرم فأراد أبو حاتم السجستانى أن يسأله ، فقال له أبو زيد : دعنى

---

(١٤) الأغانى ٣ : ١٦٣ .

(١٥) الموشح ٢٤٦ .

فأنا أعرف بسؤاله ، فقال : يا أعرابى ، كيف تقول : رعدت السماء وبرقت ، أو أرعدت وأبرقت ؟ فقال : رعدت وبرقت ، فقال أبو زيد : فكيف تقول للرجل من هذا ؟ فقال : أمن الجخيف تريد ؟ (بمعنى التَّهدّد) ، قال نعم ، فقال : أقول رعد وبرق ، وأرعد وأبرق[١٦] .

وذكرنا شيئًا عن تحرج الأصمعى أمام قداسة القرآن والحديث لا يفسرهما ، وإنما كان يكتفى بقوله : العرب تقول فى معنى هذا .. كذا ولا أدرى ما المراد منه فى الكتاب والسنة والآن نرى هذا المسلك أيضا فى بعض الألفاظ التى ليست من القرآن ، ولا يجد غضاضة من التصريح بقوله : لا أعرف هذا ، أو لا أدرى هذا فكان يقول : ما أدرى ما الحور فى العين ولا أعرف للصوت الذى يجىء من بطن الدابة اسماً ، قال : والمصحاة إناء ولا أدرى من أى شىء هو ؟ قال : ولا أدرى لِمَ سمى سام أبرص[١٧] وسئل عن عنجول فقال : دابة لم أقف على حقيقته وقال أبو حاتم : قلت للأصمعى مم اشتقاق هصان وهصيص قال : لا أدرى .... وقال : لا أدرى مم اشتقاق جيهان وجهينة وأرأسة أسماء رجال من العرب[١٨] هذا بالرغم من معرفته لمعنى الحور فى الحيوان فقد سئل عن الحور فقال : أن تكون العين سوداء كلها كعيون الظباء والبقر ، ولا حور فى الإنسان ولا ندرى كيف أن الأصمعى لا يرى الحور وصفاً للإنسان كما لا ندرى تعليله لما جاء فى القرآن فى وصف أهل الجنة فى قوله تعالى : (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) إلا أن يكون هذا الوصف فى الإنسان على سبيل المجاز فى رأى الأصمعى .

ويبدو أن الأصمعى قد لاحظ المغالاة فى مذهب القياس ، وإفراطهم فى التفريع عليه وفلسفته ، فكان هو على الجانب الآخر يمثل رد الفعل فى المغالاة وعلى درجة موازية من التشدد . ولو اقتنعنا برفضه لرواية الكميت على أنه ساكن الجرامقة من أهل الموصل – فإننا لا نقتنع بالسهولة نفسها والاطمئنان نفسه لرفضه رواية العجاج فى جيميته ، ولا رواية جرير ، ولا فى سكوته عندما سمع قوله تعالى : (ومزّقناهم كل ممزّق) فى سياق الكلام عن المصدر

---

(١٦) أمالى القالى ١ : ٩٦ ، ٩٧ ط دار الكتب .

(١٧) المصحاة : إناء يشرب فيه ، وسام أبرص : الوزغة .

(١٨) المزهر : ٢ : ٣١٧ .

الرباعى واسم المكان[١٩] .

وإذا كان الأصمعى يقف عند حد السماع ، ويتشدّد فيه ، ولا يروى اللفظ إلا أن يسمعه من عربى خالص العروبة – كان من حقهم أن يقولوا : إن الأصمعى يتحدث فى ثلث اللغة !

آثار الأصمعى :

ذكر صاحب الفهرست ثَبَتًا بمؤلفات الأصمعى لم يبق منها بأيدينا إلا القليل ، ولاحظنا أن الكتب القديمة التى كتبها من جاء بعد الأصمعى تعتمد اعتماداً ملحوظاً على كتبه ، ومن النادر أن تقرأ فى كتاب قديم دون أن تلمح فيه آثار الأصمعى إذا كان هذا الكتاب قد عرض للغة أو الشعر أو مرويات الأعراب ، وفيما يلى ما نسب إلى الأصمعى من الكتب كما جاءت فى كتاب ابن النديم :

خلق الإنسان	الأجناس	الأنواء
الصفات	الأثواب[٢١]	الميسر والقداح
خلق الفرس	الخيل	الإبل
الشاء	الأخبية والبيوت	الوحوش
الأوقات	فعل وأفعل	الأمثال[٢٢]
الأضداد	الألفاظ	السلاح
اللغات	الاشتقاق	النوادر
أصول الكلام	القلب والإبدال	جزيرة العرب
الدلو	الرحلُ	معانى الشعر
المصادر	القصائد الست	الأراجيز
النحلة[٢٣]	النبات والشجر	الخراج

---

(١٩) الخصائص ١ : ٣٦٧ .

(٢٠) فى كشف الظنون (الهمز وتخفيفها) .

(٢١) ورد فى خزانة الأدب باسم (الأبواب) انظر الخزانة ٤ : ٢٠٠ .

(٢٢) انظر ترجمة محمد بن إبراهيم بن حبيب فى بغية الوعاة ص ٤ .

(٢٣) فى كشف الظنون النحل والعسل .

ما اتفق لفظه واختلف معناه　　غريب الحديث[٢٤]　　السرج واللجام

غريب الحديث والكلام الوحشى　　مياه العرب　　النسب

الأصوات　　المذكر والمؤنث　　أسماء الخمر

ما تكلم به العرب فكثر فى أقوال الناس

ثم ذيل ابن النديم هذا الثبت بعبارة يقول فيها : إن الأصمعى عمل قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها .

وحين تكلم ابن النديم عن الكتب التى أُلِّفَتَ حول لغات القرآن ذكر كتاباً للأصمعى باسم (لغات القرآن)[٢٥] ، وأشار جورجى زيدان إلى كتاب للأصمعى باسم رجز العجاج دون أن يذكر مصدره فى ذلك ، وذكر القفطى فى إنباه الرواة حين ترجم لأحمد بن محمد الخزرنجى البشتى – أن البشتى ألّف كتاباً أسماه التكملة ، وأثبت المصادر التى اعتمد عليها ومن بينها كتاب فى (السقى والموارد) نسبه للأصمعى[٢٦] ، كما أطلعنا على كتاب للأصمعى باسم فحولة الشعراء سنعرف به ، وذكر ابن يعيش فى شرح المفصل كتاباً فى (ما يلحن فيه العامة) نسبه إلى الأصمعى[٢٧] .

ويبدو أن ابن النديم لم يحصر كتب الأصمعى على جهة الاستقصاء ، وإنما اكتفى بما حضره ووصل إلى سمعه منها ، وبين أيدينا نقل عن الأصمعى نقله أحمد بن فارس بسنده عن أبى عبيد القاسم بن سلام بعنوان (باب الاسمين المصطلحين) يقول الأصمعى : (إذا كان أخوان أو صاحبان وكان أحدهما أشهر من الآخر سميا جميعا باسم الأشهر) قال الشاعر :

ألا من مبلغ الحُرَّين عنى　　مغلغلةً وخَصَّ بها أبيا

وأحدهما هو (الحر) وكذلك الزَّهدمان والثَّعلبتان . والزَّهدمان أخوان اسم أحدهما (زهدم) والآخر (كردم) قال قيس بن زهير :

جزانى الزهدمان جزاء سوء　　وكنت المرء أجزى بالكرامة

---

(٢٤) يقول ابن النديم : رايته بخط السكرى نحو مائتى ورقة .

(٢٥) الفهرست ٥٣ ط الرحمانية .

(٢٦) إنباه الرواة ١ : ١٠٨ .

(٢٧) شرح المفصل لابن يعيش : ١ : ٨ .

ومن ذلك (الدحرضان) وهما ماءان اسم أحدهما (دحرض) والآخر (وشيع) قال عنترة :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم

ويكون ذلك فى الألقاب كقولهم لقيس ومعاوية ابنى مالك بن حنظلة (الكردوسان) ولعبس وذبيان (الأجربان) (٢٨) .

قال ابن فارس : وذكر (أى أبو عبيد) الأبواب بطولها ، وإنما نذكر من كل شىء رسماً لشهرته ، وتشير هذه الجملة الأخيرة إلى أن النقل كان قليلاً من كثير مما يرجح أن أبا عبيد اعتمد على كتاب للأصمعى فى هذا الباب .

وفى سبيل الحديث عن آثار الأصمعى سنأخذ فى تصنيفها فى وحدات متشابهة الغرض هذه أشهرها :

أولا : رواية الأصمعى اللغوية مما استخلصه من شعر العرب وما سمعه من الأعراب ، وكان هذا فى مقدمة ما اشتهر به ، يثبت ذلك النظر فى عناوين الكتب التى وصلتنا منسوبةً إليه ، فأكبر طائفةٍ منها كانت مصنفات تستهدف جمع اللغة بحسب الموضوعات ككتاب خلق الإنسان ، والخيل ، والوحوش ، والإبل ، والشاه ، والأنواء إلى غير ذلك من الكتب التى رأيناها فيما بعد مدوّنة فى مجموعات كالغريب المصنف لأبى عبيد القاسم بن سلام ، ومبادئ اللغة للإسكافى ، وفقه اللغة للثعالبى ، والمخصص لابن سيدة .

ثانياً : نرى بعد ذلك كتبًا عامة يتبين منها أن الأصمعى لم يعمل كراوية لغة فحسب ، وإنما كمصنف وباحث فى اللغة ، ومن هذه الكتب : كتاب المقصور والممدود ، وكتاب الهمز ، والمذكر والمؤنث ، والقلب والإبدال إلى غير ذلك .

ثالثاً : هناك نوع آخر من الكتب نرى الأصمعى فيها يطرق اللغة والغريب لا كمرويات ، وإنما كما وردت فى نصوص مكتوبة مستقرّة فى صميم التراث الأدبى للعرب ، ومن هذه الكتب : كتاب معانى الشعر،والقصائدالست ، وكتاب غريب الحديث ، والأراجيز ... ثم مجاميع الشعر التى عرفت باسم الأصمعيات .

---

(٢٨) فقه اللغة (الصاحبى) ٦٩ .

الموجود من كتب الأصمعي :

منذ وجدت المطبعة أخذت المخطوطات سبيلها إليها على أيدى علماء مشارقة ومستشرقين عنوا بنشر الآثار القديمة ، وقد بذل الدكتور أوجست هفنر جهدًا مشكورًا فى إحياء آثار الأصمعى ، فنشر الكثير منها ، ونحن نعرف بما تيسر لنا الوقوف عليه من هذه الكتب :

كتاب خلق الإنسان :

طبع هذا الكتاب فى بيروت سنة ١٩٠٣ ضمن كتاب الكنز اللغوى ، وتناول أسماء الإنسان فى أطواره المختلفة مذ كان فى بطن أمه حتى استوى بشرًا ، واستفتح الأصمعى كتابه بالمرأة وقد حملت فقال : (يقال للمرأة فى أول ما تحمل قد نسأت ، وهى نسىء ، فإن اشتهت على حملها فهى وحمى ، ويكون نطفة أربعين يومًا ، وعلقة مثلها ، ومضغة مثلها .... فإذا استبان الحمل فيها قيل لكل من استبان حملها قد أرأت ، وهى مرء إلا ما كان من الحافر والسباع فإنه يقال لها : ألمعت ، وهى ملمع ....) .

وكتاب الأصمعى أمثل ما كتب فى هذا الموضوع تنظيماً إذا قارنّاه بكتب معاصريه . فبعد أن تكلم عن الأطوار الأولى للجنين – تناول صفة الإنسان وأسماء أعضائه ، بدأ بالرأس وانتهى عند الأقدام ، ثم عرض للنواحى الخلقية والخُلقية ، وعالج فى الكتاب بعض القضايا اللغوية كالمذكر والمؤنث ومشتقات الألفاظ من الأفعال والمصادر ، ولهذا بقى الكتاب مرجعًا للباحثين والكاتبين فى هذا الموضوع . فأبو على القالى يذكر أوصاف الإنسان فى كتاب الأمالى منسوبة إلى الأصمعى [٢٩] ، وأبو إسحق الزجاج يعتمد اعتمادًا يكاد يكون تاماً على كتاب الأصمعى إذ حذف بعض ما جاء فيه من الشواهد ، وما لاحظه من تكرار ، وزاد عليه بعض الشىء من عنده ، واقتبس من الأصمعى أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتابه الغريب المصنف ، وكان الفرق بين الزجاج وابن سلام أن الأخير عالج فى كتابه بعض المواد . وظهر فيها تصرفه ، ونحن نعلم أن ابن سلام جمع إلى علم الأصمعى علم أبى عبيدة وأبى زيد فى محاولة لجمع آثار البصريين .

وكانت طريقة التأليف وغزارة الشواهد والاستطراد اتساعًا مكّن لمن جاء بعده أن يستعين

(٢٩) الأمالى للقالى ١ : ٢٦ ط دار الكتب .

بهذا الكتاب ، كلٌّ يجد فيه مادته لغوية أو موضوعية ، كما نجد ابن سيدة ، قد بدأ كتابه المخصص بخلق الإنسان واعتمد فيه اعتماداً ملحوظاً على كتاب الأصمعى ، واستغرق هذا الموضوع فى كتاب ابن سيدة كل الجزء الأول ومعظم الجزء الثانى .

ومن الذين كتبوا فى خلق الإنسان أبو مالك عمرو بن كركرة الأعرابى ، وأبو عمرو الشيبانى ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وأبو زيد الأنصارى ، والمفضل بن سلمة ، وأبو حاتم السجستانى ، وابن قتيبة ، وأبو إسحق الزجاج وكثير من علماء القرن الثالث والرابع .

كتاب فحولة الشعراء :

حقق هذا الكتاب الأستاذان محمد خفاجى ، وطه الزينى ، والكتاب مساءلة بين أبى حاتم السجستانى ، والأصمعى يتضمن رأى الأخير فى قدامى الشعراء ، وإجابات الأصمعى قصيرة مقتضبة لا ترقى إلى درجة التحليل والنقد القائم على التعليل : يسأله أبو حاتم : أى الناس طرًّا أشعر ؟ فيقول : النابغة ، قال أبو حاتم : تقدم عليه أحدًا ؟ فيقول الأصمعى : لا ، ثم يعْرض للشعراء فلا يزيد فى وصف الشاعر عن كونه فحلاً أو ليس بفحل ، ويقول فى هذا :

(الأعشى : أعشى قيس بن ثعلبة ليس بفحل ، وعلقمة بن عبدة فحل ، والحارث بن حلزة فحل ، وعمرو بن كلثوم ليس بفحل ، والمسيب بن علس فحل ، والشماخ فحل .....) فإن علق على أحدهم لم يسترسل ، ولم يعلل لفحولته أو نفى الفحولة عنه إلا فى كلمات قليلة معدودة ، فقد سئل عن مُزرد فقال : ليس بدون الشماخ ، ولكنه أفسد شعره بما يهجو الناس .

وأورد صاحب الموشح مثل هذه المناقشة عن الأصمعى وأبى حاتم ، فإذا استحثه أبو حاتم على التوسع فى الرأى والتعليل له ، وموضع المفاضلة فإنه كان يشير إلى الشاعر المُقِلّ على أنه غير فحل كالذى يذكره عن الحويدرة إذ يقول : لو كان قال خمس قصائد مثل قصيدته العينية كان فحلاً ، ومثل هذا الحكم يقوله أيضا عن ثعلبة بن صعير المازنى ، ومعقر بن جمار البارقى ، فلما سئل عن أوس بن مغراء الهجيمى – ويبدو أنه كان مقلاً – قال : لو كان قال عشرين قصيدة لحق بالفحول .

وهو كذلك قصير العبارة فى مقارنته بين شاعر وشاعر : فقد سئل : من أشعر : الراعى أم

ابن مقبل ؟ قال : ما أقربهما فلما ألح عليه أبو حاتم وأبدى له أن هذا الحكم لا يقنعه قال : الراعى أشبه شعرًا بالقديم وبالأول . .

والأصمعى يستجيد أحياناً قصيدة واحدة أو بعض القصائد للشاعر ، فيعده من الفحول عند هذه القصائد وحدها ، كما يقول وقد سئل عن كعب بن سعد الغنوى : ليس من الفحول إلا فى المرثية ؛ فإنه ليس فى الدنيا مثلها .

أما شعراء الحرب فإنه يطلق عليهم اسم الفرسان وكأنها تقابل كلمة الفحول ، ولا يجمع بين الفارس والفحل : فقد سئل عن زيد الخيل فقال : هو من الفرسان ؛ وعن عمرو بن معديكرب قال : من الفرسان ؛ وعن خفاف بن ندبة ، وعنترة ، والزبرقان بن بدر قال : هؤلاء أشعر الفرسان ؛ فلما سئل عن سليك بن السلكة قال : ليس من الفحول ولا من الفرسان (٣٠) .

ويبدو أن كلمة الفحل على أنها مرتبة للشاعر الكبير لم تكن قبل الأصمعى ، ولم نجدها كتعبير لهذا المعنى الذى أراده عند من سبقه من علماء الشعر حتى كأنها إحدى تعبيرات الأصمعى التى ابتكرها ، وقد ضاق أبو حاتم بهذا التعبير المقتضب فسأله عن معنى الفحل فأجابه : إن للفحل مزية على غيره كمزية الفحل على الحقاق ، وأحاله على بيت جرير :

وابن اللبون إذا مالز فى قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس (٣١)

وإذا اعتبرنا ما جاء فى هذا الكتاب صورة من صور النقد الأدبى فإن كتاب الأصمعى يكون باكورة لهذا اللون من التأليف . وإن الأصمعى وضع كتابه هذا فى بداية حياته العلمية . يدلك على ذلك ما رأيناه فى نصوص أخرى بلغ فيها الأصمعى مبلغاً أسمى فى مجال النقد الأدبى سنشير إليها بعد قليل .

كتاب الدارات :

نشر هذا الكتاب المستشرق رودلف جاير عن نسخة بدار الكتب بالقاهرة ، ثم نشره للمرة الثانية الأستاذ أوجست هفنر ، وهو كتيب يُعرِّفُ فيه صاحبه بالدارات التى بجزيرة العرب ، والدارة كما يعرفها أبو سعيد هى ما اتسع من الأرض وأحاطت به الجبال فى غلظ أو سهل .

---

(٣٠) الموشح ٨١ .

(٣١) المصدر السابق ٤٩ .

يقال : دار ، ودارة ، وأدؤر ، ودارات ، وبدأ الكتاب كما يلى :

(دارات العرب المعروفة فى بلدانهم وأشعارهم ست عشرة دارة ، فمن ذلك دارة وشجى وأنشد :

ولست بناس موقفًا أن وقفته بدارة وشجى ما عمرت سليما

وظل على هذا النمط ، يذكر الدارة ويحتج لاسمها ببيت من الشعر أو الرجز حتى بلغ بها ست عشرة دارة .

والكتاب على هذه الصورة من التأليف لا يعدو أن يكون رسالة قصيرة مقتضبة تتضمن أسماء الدارات والاستشهاد لها بأبيات الشعر والرجز .

وللأصمعى معرفة بمعالم الجزيرة : دروبها وجبالها وشعابها ومياهها إلى غير ذلك أدّته إلى معرفتها رحلاتُه ومروياته من الآثار الأدبية أيضًا ، وله تأليف يحمل اسم جزيرة العرب أظنه يستهدف هذه المعالم ، وكتابه عن الدارات استكمال لها ، إلا أنه لم يحدد أماكنها الجغرافية إلّا ما يدركه القارئ من الاحتجاج لاسم الدارة بالشعر والرجز إن تضمن البيت إشارة إلى ذلك ولعلك أدركت إحساسه باللغة الذى يسيطر على ذهنه فى كل ما يرويه : فهو يذكر لك أنواع الجموع لهذه اللفظة بعد التعريف بها فهى دار ودارة ، وأدؤر ودارات إلى غير ذلك .

روى هذا الكتاب تلميذه أبو حاتم السجستانى ، وحيث عرف : ما الدارة ؟ وعرف مصدر الأصمعى فى الإفادة بها ، واعتماده فى ذلك على الآثار الأدبية ذكر دارة أخرى لم يذكرها الأصمعى وأشار إلى ذلك بقوله : (ومن غير كتاب أبى سعيد دارة موضوع ، قال الحصين بن الحمام المرى :

جزى الله أفناء العشيرة كلها بدارة موضوع عقوقاً ومأثما

كتاب الشاء :

جاء كتاب الشاء فى روايتين . إحداهما عن أبى حاتم ، والأخرى عن أبى إسحق الزيادى : تحدث الأصمعى عن حملها فقال : الوقت الجيد فى الشاة أن تخلى سبعة أشهر بعد ولادها ، فيكون حملها خمسة أشهر ، فتضع فى كل سنة مرة ، فإن أعجلت عن هذا الوقت حتى يحمل عليها مرتين فى السنة فذلك (الإمغال) يقال : أمغل بنو فلان ، وهم ممغلون ،

والشاء ممغل ، ويقال : أمغلت المرأة فهى ممغل إذا حملت بعد طهرها من النفاس ، قال القطامى :

بيضاء مخطوطة المتنين بهكنة ريا الروادف لم تمغل بأولاد

ثم يتحدث عن الشاء عندما تطلب الفحل ، والعلامات التى تدل على الحمل وهى أن تدجو شَعَرَتُها ، وتستقبض خاصرتها ، ويحشف حياؤها (تستقبض : تنتفخ لتبين ، تدجو : تحسن وتصفو) والحياء من الشاء والمعز والناقة ومن ذوات الحافر الطبية ، ومن كل سبع الثفر .

ويتحدث عن ضرعها عندما يشرف ويقع فيه اللبأ ، وعندما يكثر لحم هذا الضرع ، ثم لا يأخذ نفسه بذلك التنظيم الذى التزمه فى كتاب خلق الإنسان ، ولا يأخذ الأعضاء بترتيبها ، فبعد أن تحدث عن قرنيها عرج على صفاتها فقال : (شاة راجن وهى تكون فى البيوت ليست من الرواعى ، وبعض العرب يقول : راجنة ود اجنة) ثم يعود إلى وصف أسنانها ، ثم يعدد أمراض الشاة (فيقال للشاة إذا خرج بها الجدرى : ما موهه ، والاسم الأميهة وهو جدرى الغنم ، والنقاص داء يأخذ الغنم فتحرق أكبادها وتسود) .

وعندما يشير إلى أنواع الشاء يقول : (ومن الغنم النقد وهو شاء صغار الأجسام قصار الآذان ، وصوفها أجود الصوف وألينه وأقله مسكا لأن مراعيها رقيقة النبات لينة ، ويقال فى جمع النقد نقاد) .

كتاب الخيل :

طبع كتاب الخيل للأصمعى فى فينا سنة ١٨٨٨ م ، ثم أعيد طبعه سنة ١٨٩٥ م بعناية الدكتور أوجست هفنر ، وكانت اللغة تحتل جزءًا كبيرًا فيه ، يقول فى أوله : الفرس واحد الخيل ، والجمع أفراس الذكر فى ذلك والأنثى سواء ؛ ثم يفصل الكلام فى عناصر نشير إلى أهمها فيما يلى :

ما يستحب من الخيل :

قال : يستحب من الفرس أن يطول بطنه ، ويقصر ظهره ويشرق حجبتاه[٣٢] ويشرق

(٣٢) الحجبة : رأس الورك ، والحجبتان من الفرس ما أشرف على صفاق البطن من وركيه اللسان مادة ح ج ب .

منسجه[٣٣] ، وتعرض أوظفة رجليه ، وتحدب أوظفة يديه ، ويرق زوره وهو الصدر ، وتعظم بركته والبركة بما فيها من لحم وعظم هى ما استقبلك من صدر الفرس ، قال الجعدى :

ولوح ذراعين فى بركة إلى جؤجؤ رهل المنكب... إلى آخره

ما يكره فى الخيل :

ذكر الأصمعى ما يعيب الخيل فمنها : عظم الزور ، وقصر القضيب ، وغلظ العنق ، واضطراب الأذنين ، وطول الشعرة ، وكثرة لحم المتن[٣٤] وقصر الضلع ، وطول العسيب ، وضيق الجلد على الكتف ، وضيقه على العضد ، وغلظ الذفرى ، والجحظة ، وكثرة لحم الوجه ...

مشى الخيل وعدوها :

من المشى العنق وهو أول المشى ، والتوقص وهو أن يتزو نزواً ويقرقط ، ويقال مَرَّ يَتَوَقَّصُ به فرسه ، ومن المشى الد ألان وهو مشى يقارب فيه الخطو كأنه مثقل من حمل ، ومنها الذألان وهو مَرّ خفيف سريع . يقال مر فرسه يذأل ذألانا ، ومنه الذئب يسمى ذؤالة لخفة مرّة .

ألوان الخيل :

وتكلم فى ألوان الخيل فذكر منها الكمتة ، والحمة ، وهو أحب الألوان إلى العرب مع الحوة ، والكمتة حمرة تدخلها قتوء ، يقال : اكمات يكمات اكميتاتا ؛ ومنها الصفر ، يقال : فرس أصفر ، وفرس صفراء ؛ والحوة وهى الخضرة التى تضرب إلى السواد . ومن ألوانه الوردة وهى فى الخيل الدغم وهو قليل من الألوان ، وهو أن يكون وجهه يضرب إلى السواد[٣٥] .

والأصمعى له معرفة بالخيل ، وأحد الذين يرجع إلى روايتهم فى هذا السياق : ذكر صاحب العقد أسماء السوابق من الخيل للأصمعى مع اختلاف فى الرأى بينه وبين أبى

---

(٣٣) منسج الدابة ما بين العرف وموضع اللبد .

(٣٤) المتنان لحمتان معصوبتان بينهما صلب الظهر .

(٣٥) الدغم أن يضرب وجحافله إلى السواد مخالفاً سائر جسده .

عبيدة[٣٦] ، وذكر السيوطى حديثاً عن الخيل دار بين الأصمعى وأبى عبيدة فى حضرة الفضل ابن الربيع تبين منه أن الأصمعى كان أوعى من زميله معرفةً بأعضاء الخيل وأسمائها[٣٧] .

وجاء فى الأمالى نص طويل فى ست صفحات أورد فيه الأصمعى عشرين اسما من أسماء الطير فى وصف الفرس فى قصيدة لجرير بن عطية الخطفى[٣٨] . ثم لم تقف هذه المعرفة عند حد اللغة والمعرفة بالأسماء ، فكان أيضاً يعرف مشاهير الخيل عند العرب فيقول :

الوجيه ، ولاحق ، والغراب ، وسبل وهى أم أعوج كانت لغنى ، وأعوج كان لبنى آكل المرار ، ثم صار لبنى هلال بن عامر ، وجروة فرس شداد بن عمرو أبى عنترة ، ومياس ، وهداج لباهلة لبنى أعيا قالت الحارثية :

شقيق وحرمى هراقًا دماءنا وفارس هداج أشاب النواصيا

والكلب فرس رجل من بنى عامر أو غطفان . وقرزل : فرس الطفيل أبى عامر بن الطفيل ، وذو الخمار : فرس مالك بن نويرة ، والجوب فرس أرقم بن نويرة ، وذات النسوع : فرس بسطام بن قيس ، والنعامة : فرس للحارث بن عياد ، وولدت النعامة الشيط وهو لبنى سدوس ، وكان لخزز بن لوذان وفيه يقول :

لا تذكرى مهرى وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

والمتمطر : فرس حيان بن مرة .... ، وكامل : فرس الحوفزان ، وخلاب ، وقيد لبنى تغلب ، ومخالس لبنى عقيل ، واليحموم والدفوف للنعمان بن المنذر ، والعصا : فرس جذيمة الأبرش ، وفى بنى تغلب فرس يقال له العصا فارسه الأخنس بن شهاب ، والهطال : لزيد الخيل ، والنحام لرجل يقال له السليك بن سلكة السعدى ، وداحس لقيس بن زهير ، والغبراء لحذيفة بن بدر الذبيانى[٣٩] .

وللأصمعى فى أخبار الخيل قصة عجيبة يرويها ويهتم بدقائقها ، من ذلك قوله :

الحرون بن الأثاف بن الخزز بن ذى الصوفة بن أعوج فرس مسلم بن عمرو الباهلى فى الإسلام ، وكان قد اشتراه من أعرابى بالبصرة بألف درهم معارضة بمتاع .... فسبق الناس

---

(٣٦) العقد ١ : ٢٠٨ .

(٣٧) بغية الوعاة ٣٠٤ .

(٣٨) الأمالى ١ : ٢٠٠ .

(٣٩) ذيل الأمالى ١٨٤ .

عليه عشرين سنة ، وكان يسبق الخيل ، ثم يحرن حتى تلحقه الخيل ، فإذا لحقته سبقها ثم حرن ، ثم سبقها . وكان الحجاج قد بعث بابن له (أى للفرس) يقال له البطان إلى الوليد بن عبد الملك ، فصيره لمحمد ابنه ، وولد البطان البطين ، وولد البطين الذائد ، وكان هشام بن عبد الملك يشتهى أن يسبق الذائد ، فأتوه بفرس بربرى يقال له المكاتب بعد ما حطم الذائد وسبق أيضاً عشرين سنة[٤٠] .

ولقد أعانته معرفته بأسماء الخيل وأنسابها وأخبارها على درك الشعر ومعانيه ، وكان هذا الوجه يتمم ما عنى به الأصمعى من رواية الشعر واللغة ، سمع قول امرئ القيس :

وأركب فى الروع خيفانةً كسا وجهها سعفٌ منتشر

فقال : إذا غطت الناصية الوجه لم يكن الفرس كريماً ، والجيد الاعتدال كما قال عبيد :

مُضَبَّرٌ خلقها تَضْبِيراً ينشقّ عن وجهها السَّبيب[٤١]

وكان من حقه وهو على هذا القدر من المعرفة أن يخرج بعض الشعراء من عداد الفحول حين يعرضون لوصف الفرس فكان يقول : لم يكن النابغة وزهير وأوس يحسنون صفة الخيل ، ولكن طفيل الغنوى فى صفة الخيل غاية النعت[٤٢] .

لم يعرض الأصمعى لهذه التفاصيل فى كتابه ، واكتفى فيه بالأسماء والمفردات التى ذكرنا طرفًا منها ، فخرج كتابه فى صفحات قليلة إذا ما قورن بكتاب أبى عبيدة فى الخيل حتى لقد وقع فى روعى أن ما وصلنا من كتاب الأصمعى يمثل جزءًا منه ، وليس الكتاب كله .

وكتاب أبى عبيدة يمتاز بتبويب منظم ، قدم له بمقدمة طويلة ومقال عن مكانة الفرس فى حياة الأعرابى ، ومكّن للمتن بشواهد كثيرة من الشعر والرجز ، كما ذيّله بمقطعات وقصائد فى وصف الخيل[٤٣] ، فتضاعفت صفحات الكتاب وفضله الدكتور كرنكوى على كتاب الأصمعى فى مقال ذيل به كتاب أبى عبيدة .

ولأهمية الفرس فى حياة البدوى كما وضحها أبو عبيدة فى مقدمة كتابه نجد كثيرًا من العلماء

---

(٤٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٤١) الموشح ٣٥ .

(٤٢) الموشح ٤١ .

(٤٣) الجزء الأخير من كتاب الخيل لأبى عبيدة .

يتناولونه فى كتيبات منفردة أو ضمن مجموعات نذكر منهم : النضر بن شميل ، وقطرب بن المستنير ، وابن الأعرابى ، وأبا نصر أحمد بن حاتم ، وعمرو بن أبى عمرو الشيبانى .

كتاب الإبل :

نشره الأستاذ الدكتور أوجست هفنر فى ليبزج سنة ١٩٠٥م ، وأعيد طبعه فى بيروت ضمن مجلد أطلق عليه (الكنز اللغوى) .

جاء الكتاب فى روايتين :

إحداهما : عن أبى حاتم السجستانى .

والأخرى : عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أخى الأصمعى ، وعرّف هفنر بالروايتين ، ونشر كل واحدة منفردة ، ومادة الكتابين تكاد تتشابه إلا من زيادات فى رواية أبى حاتم واختلاف فى ترتيب العناصر ، وسنعرّف بالكتاب الذى رواه أبو حاتم وهو يفى بالغرض إذا كان القصد بيان طريقة الأصمعى .

قال أبو حاتم : قال أبو سعيد : .... أجود وقت يحمل فيه على الناقة أن تُجَمّ سنة ويحمل عليها فيقال : قد أضربت الفحل وأضربها الفحل ، فإذا حمل عليها فى كل عام فذلك (الكشاف) : يقال : ناقة كشوف ، وقد أكشف بنو فلان العام فهم مكشفون إذا لقحت إبلهم على ذلك الوجه ، وإذا لقحت الناقة عراضاً من الفحل (والعراض أن يعارضها الفحل فيتنوخها فيضربها) فذلك الضراب يسمى العراض ، ويقال : لقحت الناقة يعارة ، قال الراعى :

نجائب لا يَلْقَحْن إلا يعارة عراضاً ولا يشربن إلا غواليا[٤٤]

وانتقل إلى الكلام عن حمل الناقة فقال : ... فإذا استبان قيل قد قرحت تقرح قروحاً ، فإذا ثبت اللقاح فهى خلفة حتى تبلغ عشرة ، وحينئذ تسمى عشراء ، وقد عشرت ، وهى إبل عشار ، فإذا حالت قيل : ناقة حائل ....

ثم يعرض لما يصيب الناقة من أمراض فى أشهر الحمل ويذكر علاجها ، وبعدها يسمى الوليد حتى يكبر ، فهو ابن مخاض ، فلا يزال كذلك يجوز فى الصدقة ، حتى إذا وضعت أمُّه وصار لها لبن من غيره فهو ابن لبون ، ويظل على هذه التسمية سنة فإذا استحقت أمه حملاً

(٤٤) قال الأصمعى : إن الطرماح سمع هذا البيت من الراعى ، فسرقه وعمل على منواله .

آخر بعد الأول فهو حق ، فإذا أتت عليه سنة بعد حق فهو جذع ... إلى غير ذلك .

ثم يصف الناقة بعد الوضع : (فإذا عطفت على الولد فدرت عليه فهى ظئور .... فإذا بركت الناقة على بول أوندى أو أصابتها عين فتعقد لبنها فى ضرعها فخرج اللبن خاثراً متقطعًا كأنه قطع الأوتار وسائر اللبن ماء أصفر رقيق – قيل : قد أخرطت ناقة فلان فهى مخرط ، وهن نوق مخارط ، ولبنها الخرط) .

ويُسمِّى سنام البعير : السنام ، والشرف ، والذروة ، والقمعة ، والقحدة ، والحودة .

ويعقد فصلاً فى عدد الإبل : فالذود ما بين ثلاث إلى عشر ، وفى الأمثال : الذود إلى الذود إبل ؛ والصرمة قطعة خفيفة قليلة ما بين العشر إلى بضع عشرة ، والصبة[٤٥] فوق ذلك ، وهى بين العشرين إلى الثلاثين إلى الأربعين ؛ والعكرة : الخمسون إلى الستين إلى السبعين ؛ والهجمة المائة وما داناها .

وتكلم عن أدواء الإبل « جمع داء » ثم عن أنواع السير : فهو العنق إذا كان فسيحا ، والمسيطر ، فإذا ارتفع عن العنق قليلاً قيل : هو يمشى التزيد ؛ فإذا ارتفع بعد ذلك فهو الذميل ثم الرتل .

ومن أظماء الإبل : الظمء ، وهو ما بين الشربتين ، فإذا شربت كل يوم فهى رافهة . وأصحابها مرفهون . قال : إبل فلان ترد رفها .

ومن أصواتها البغام ، فإذا ضجت فهو الرغاء ، فإذا طربت فى إثر ولدها قيل : حنت .

على هذا النحو يسير الأصمعى فى كتابه ، يجمع الأسماء التى تدور حول الإبل ، ويورد عليها شواهد من الشعر والرجز .

كتاب الفَرق :

نشره الدكتور دافيد هنريخ مولر فى فينا سنة ١٨٧١ م ، وقد اتجه فيه الأصمعى إلى تسمية الأعضاء ، وفرّق بين اسمها فى الإنسان واسمها فى سائر البهائم ، ثم عقب على ذلك ببيان الفروق بين مسميات شتى فالشفاة . جمع شفة وهما الشفتان . والمشفر من البعير وهما المشفران ، والجمع المشافر ، والظفر هو ظفر الإنسان وجمعه أظفار وأظفر وأظافر ، وقد يجوز الظفر لكل شىء ومن قول زهير بن أبى سلمى :

---

(٤٥) فى المحيط (السبة) .

لدى أسد شاكى السلاح مقاذف له لبد أظفاره لم تقلم

والأنف أدنى العدد والجمع أنوف ، وهو المعطس ، والجمع المعاطس ، ويقال : أرغم الله معطسه ، وهو المرسن أيضًا ، والجميع المراسن قال العجاج :

وفاحمًا ومرسنًا مسرجا

والرجل للإنسان ، والجمع الأرجل ، والحافر من الفرس فى موضع القدم من الإنسان والجمع الحوافر – والخف من البعير والجمع أخفاف .

وتحدث عن الصدر والفرج والثدى على هذا النمط ... ثم عن المخاط والبصاق والعرق . فيقال : عرق الإنسان عرقا ، وهو النجد أيضًا يقال : نجد الإنسان ينجد نجدًا قال الشاعر :

فقمت مقامًا خائفاً من يقم به من الناس إلا ذا الجلالة ينجد

والصواح من ذى الحافر . قال الشاعر :

جلبنا الخيل داميةً كلاها يسيل على سنابكها الصواح

ويقال له الحميم ، ويقال : عصيم العرق وهو أثره إذا جف .

ثم تكلم بعد ذلك عن الجلوس ، والتغوط ، والغلمة ، والنكاح ، والحمل والولادة ، وفى أسماء الأولاد يقول : يقال الغلام والجارية ويقال لولد الدابة المُهر والجمع مهار ومهارة – وجمع مهرة مُهُر قال الشاعر :

عن حوض يساقطن المها والمُهُر

ويقال لولد الحمار الجحش ، والأنثى جحشة والجمع الجحاش – والفلو ولد الفرس إذا فطم .... ويقال لولد الشاة السخل والبهم ، والواحدة سخلة وبهمة .

ومن أسماء الجماعات : يقال جماعة من الناس ، وقطيع من البقر والغنم ، وسرب من الظباء والنساء ويجوز السرب أيضا فى الطير والجمع سروب ، والأجل : القطيع من البقر ، والعانة : القطيع من حمر الوحش . ويقال ذود من الإبل لما بين الثلاث إلى العشر ، ويقال للمائة من كل شىء هجمة ، والصرمة القليل ، يقال رجل مصرم إذا كانت له صرمة ، والكور القطيع من الإبل والبقر والجمع الأكوار ، ويقال : حوط من الغنم .

ومن الأصوات : يقال صهل الفرس يصهل صهيلا ، وحمحم حمحمة وذلك إذا طلب الشعير ، ونهق الحمار وشحج البغل يشحج شحيجا وشحاجا . ويقال : رغا البعير يرغو رغاء .

وهدر يهدر هديرًا إذا هاج ، ويقال للناقة إذا مدت صوتها فى إثر ولدها : قد حنَّت حنيناً إلى غير ذلك .

ومن أصوات الطير : حرحر البازى ، والصقر صرصر صرصرة ونعق الغراب ونعب . قال رؤبة :

لا يلتوى من عاطس ولا نعيق

ومن أصوات السباع : زأر الأسد ، ووعوع الذئب وضغا[٤٦] يضغو ضغاء قال الشاعر :

كأن خضيفه بطن الجواد وعوعوة الذئب فى الفدفد[٤٧]

كتاب النبات والشجر :

نشره أوجست هفنر سنة ١٨٦٩ م وأعيد نشره ضمن مجموعة سميت (البلغة فى شذور اللغة) رواه أبو حاتم السجستانى[٤٨] .

فى هذا الكتاب وجهة جديدة يتجه إليها الأصمعى ومعه عدته من اللغة ، فيصف الأرض المعدّة للزراعة ، فيسميها قبل وبعد نزول المطر ، وعندما ينبت النبات على وجهها فيقول : يقال : رأيت أرض بنى فلان غب المطر واعدة حسنة إذا رُجِىَ خيرها ؛ ويقال : وشمت الأرض إذا رأيت فيها شيئاً من النبات وأنشد :

كم من كعاب كالمهاة الموشم[٤٩]

وينشد المرشمة أيضًا ، وأرشمت الأرض ، والموشم التى قد نبت لها وشم من النبات ، أى شىء يرعى فيه ويقال : أبشرت الأرض إذا حسن طلوع نبتها إبشارًا ....

ويأخذ فى وصف النبت نفسه : فإذا امتلأت به الأرض فهو نبت عميم ، والنبت مكتهل ومعتم ، فإذا اشتد خصاص النبت قيل : قد استك استكاكا ؛ فإذا خرج زهره قيل : قد جن جنونا ؛ فإذا طال وتم قيل : قد استأسد ؛ وإذا تهيأ النبت للييبس أقطر ، واقطرّ (بتشديد

---

(٤٦) الأصل فى الضغو الاستخذاء ، ضغا يضغو ضغوًا ، وضغا الذئب والسنور والثعلب يضغو ضغوًا وضغاء : صوت وصاح ، وكذلك الكلب والحية ، ثم كثر حتى قيل للإنسان إذا ضرب فاستغاث اللسان مادة ض غ ا .

(٤٧) خضف بها يخضف خضفًا (بسكون الضاد) وخضفًا (بفتحها) وخضافًا إذا ضرط . اللسان .

(٤٨) جاء فى مقدمة ناشر الجمهرة أن أبا القاسم عمر بن محمد بن سيف روى عن ابن دريد كتاب النبات للأصمعى الجمهرة ١ : ٦ .

(٤٩) المهاة الموشم : الغزالة المبرقشة .

الراء) اقطرارا ؛ فإذا يبس فقد تصوّح تصوّحا وانصاح انصياحاً .... ويقال ليابس النبت وحطامه : السفير ؛ لأن الريح تسفره .... ومن ذكور النبات القرّاص (بتشديد الراء) والخزامى والأقحوان .... ومن غير الذكور الهبشر[٥٠] .... ومن الحمض الرمث والدغل والقلام .

ثم تكلم عن النبات ينبت فى السهل فنه : العرفج ، والنُّعض (بتشديد النون وضمها) .

ومما ينبت فى الحجاز الأرنبة ، والرقلة ، والوشيج ، والعيشوم ، ومما ينبت فى الرمل : الآلاء والأقطى .

ومما ينبت فى جبال نجد : الثغام والحماض ....

وفى كثير من هذه الأسماء كان يقلب الكلمة على أوجهها من الاشتقاق اللغوى .

كتاب النخل :

لا يحمل هذا الكتاب اسم الأصمعى صراحة ، وهو مروى عن أبى حاتم السجستانى ، ولما كان أبو حاتم يروى عن الأصمعى كما يروى عن أبى عبيدة فإن أوجست هفنر الذى نشر الكتاب ينسبه للأصمعى على جهة التغليب ولا سيما أن اللسان يروى جل مفرداته منسوبة للأصمعى .

عرض صاحب الكتاب لأسماء النخل فى أوضاعه المختلفة ، وفى أطواره المتعددة ، ولما كانت النخلة عن نواة ، أو منقولة ، فإنه يذكرها متى ظهرت من النواة ، فالجثيث هو أول ما يطلع من أمّه ، والودى هو صغار النخل ، وإذا كانت الفسيلة غير مستأرضة فهى الراكب .

وأخذ فى تسمية النخلة منذ بدأت . فيقال للفسيلة إذا أخرجت قلبها : قد أنسغت ، وهو يفرق بين التسمية فى الحجاز وبينها فى نجد : فهى العواهن فى الحجاز ، وهى الخوافى فى نجد . وأصول السعف الكرانيف ، والعريض التى تيبس فتصير مثل الكتف هى الكربة ، وشحمة النخلة هى الجمار ....

ثم ينتقل إلى حمل النخلة : فالمهتجنة تلك التى تحمل وهى صغيرة ، فإن حملت سنة ولم تحمل أخرى قيل : قد عاومت وسانهت (من العام والسنة) . فإذا كثر حملها قيل : قد حشكت ....

---

(٥٠) الهبشر : نبات رخو على رأسه برشومة (اللسان) .

ثم يسمى الثمار فيقول عن التمر : السياب إذا انعقد الطلع ، فإذا اخضر واستدار فهو الجدال فى لغة أهل نجد ، فإذا عظم فهو البسر ، فإذا صارت فيه خطوط وطرائق فهو المخطم ، فإذا صارت إلى الحمرة قيل : أزهى النخل ، فإذا بدت فيه نقط من الإرطاب قيل : قد وكت ، فإذا أتاها التوكيت من قبل ذنبها قيل : ذنبت ، فإذا دخل كلها الإرطاب وهى صلبة فهى جمسة ....

والمؤلف يسلك فى تأليفه سلوكاً رتيباً كهذا الذى رأيناه فى كتاب خلق الإنسان . فبعد أن ذكر النخلة فور إعداد الأرض لها – تابع أطوار نموها ، فذكر الثمار ، وأسماءه ، ثم تحدث عن أمراض النخل فقال :

إذا أنسغت النخلة عن عفن وسواد قيل : قد أصابها الدمال ، وإذا لم تقبل النخلة اللقاح ، وإذا لم يكن للبسر نوى قيل : قد صأصأت النخلة . والتأليف على هذه الصورة لا يخالف طريقة الأصمعى مما يجعلنا فى طمأنينة حين ينسب الكتاب إليه .

وفى أدب الكاتب عرض ابن قتيبة للكلام عن النخلة ، فتلمح الروح نفسها فى التأليف الذى لا يكاد يتغير إلا بما يشعر القارئ بأن ابن قتيبة قد تصرف قليلاً فى النقل ، انظره يقول :

(.... الكرنافة أصل السعفة التى تيبس ، وجمعها كرانيف ، والكربة التى تيبس فتصير مثل الكتف ، والجريد والعسب السعف ، والودى الفسيل واحدها ودية ، وأول حمل النخل الطلع ، فإذا انشق فهو الضحك ، وهو الإغريض ثم البلح ثم السياب ثم الجدال إذا استدار واخضر قبل أن يشتد ، ثم البسر إذا عظم ، ثم الزهو إذا احمر ، يقال أزهى يزهى فإذا بدت فيه نقط من الإرطاب فهو الموكت ، فإن كان ذلك من قبل الذنب فهى مذنبة وهو التذنوب ، فإذا لانت فهى نعدة ، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهى مجزعة ، فإذا بلغ ثلثيها فهى حلقانة ، فإذا عمّها الإرطاب فهى منسبتة .....)[٥١] إلى آخر ما جاء فى كتاب ابن قتيبة ، ونكاد نقطع بأن ابن قتيبة اطلع على كتاب الأصمعى ونظر فيه ، وأفاد منه ، يدلك على ذلك هذه العبارات التى تتشابه حرفيًا وعبارات الأصمعى .

كتاب الكَرْم :

يطالعنا فى هذا الكتاب شىء جديد هو العلم بالناحية الفنيّة الزراعية ، وما أحسب ذلك

(٥١) أدب الكاتب ٣٨ ، ٣٩ ط الاتحاد الأخوى ١٣٢٨ هـ .

من علم الأصمعى ، ويروى الكتابَ أبو حاتم السجستانى فيقول : قال الطائى : [٥٢] (يقال لشجر العنب : الكرْم ، والحبل ، الواحدة كرمة وحبلة ، فإذا غرست الحبل أخذت ثلاث نوامٍ طول كل نامية ثلاثة أشبار ، ثم تحفر حفرة قدر ذراع فتثنى النوامى فى الأرض وتترك منها عينين عينين ، ويقال للعيون الابن ثم تكبس عليها التراب وتترك لها حويضاً ثم تسقيها طوف القصب (أى قدر ما يسقى القصب) ..... [٥٣] .

ثم يدخل فى كلام لغوى أشبه بكلام الأصمعى فيقول : (فإذا بدت عيونه قيل : قد صوف ، فإذا رأيت فيه الطلع قلت : أزمع ، فإذا التقى قلت استظل ، وإذا انفتحت عناقيده قلت : نفض ، قال : ويقال : عنقود وعنقاد ، فإذا فرغ من نفضه قيل : حصرفصل ، فإذا كبر حبه شيئاً قيل : قد غضَّن ، وقد أغضن ، فإذا رأيت فى الحب الماء قلت : قد أرق ....) .

قال أبو حاتم : وقال غير الطائى .... وهذه عبارة تشير إلى أن أبا حاتم كان يجمع كل ما يقال حول هذا الموضوع لا يكتفى فيه بعلم الأصمعى الذى لم نر له ذكرًا للآن ، وإنما يروى عن الطائى وغير الطائى ، ولا نكاد نقلب صفحات الكتاب حتى نرى أبا حاتم يروى عن (غير الطائفيين) .

ويقابلنا الأصمعى حين يتناول ضروب العنب فيقول :

(أجود العنب الأبيض : أطراف العذارى ، والضروع ، وهما متقاربان كل واحد يشبه صاحبه ..... والأسود الغربيب وهو أرَقّه وأجوده ، والنواجى ، والنواسى ، والحنشى ، وعيون البقر ، والنواسى الشامى ، والدوالى ، والمُلاحى وينشد للأصمعى قوله :

ومن تعاجيب خلق الله غاطية يعصر منها مُلاحى وغربيب [٥٤]

هنا ذكر الأصمعى صراحة لغرض لغوى هو التدليل على تخفيف لام ملاحى ، ثم يعقب على ذلك بحديث لأنس ، ونفطويه حول تخفيف وتشديد اللام من ملاحى .

ويروى عن الأصمعى أيضا فوائد لغوية حول اسم من أسماء الخمر هو المشعشعة فيقول :

---

(٥٢) لا أدرى من الطائى ؟ هل هو رجل بعينه ، أو رجل من الطائف وكانت مشهورة بالعنب

(٥٣) كتاب النخل والكرم ٧٣ .

(٥٤) الكرم ٨٥ .

قال الأصمعى : (كل شيء مزج فأرق مزجه فهو مشعشع ، ورجل شعشاع الجسم ....)[٥٥] وأنشد للأصمعى شعرًا فى سياق الاحتجاج لهذه الأسماء : فمن ذلك الخرطوم ، قال الأصمعى : أول ما يخرج من الدّن إذا بزل وأنشد للعجاج .

صهباء خرطومًا عقارًا قرقفاً

وأنشد :

جادت لها من ذوات القار مترعة كلفاء ينحت من خرطومها المدر

وهكذا يفرد للأصمعى من وقت لآخر إذا كان الحديث يتعلق بشيء من اللغة .

والرأى عندى أن الكتاب لأبى حاتم السجستانى استقى مادته من الطائفيين ومن الأصمعى ومن غير الأصمعى ، ثم تعرض الكتاب بعد ذلك لعمل الوراقين الذين كانوا يزيدون شروحاً على الكتب اعتقاداً منهم أن ذلك مما يفيد البحث : يدلك على هذا تلك المناقشة بين أنس ونفطويه حول تخفيف اللام وتشديدها من كلمة (ملاحى) وهما يتأخران عن كل من الأصمعى وأبى حاتم . أما نسبة الكتاب للأصمعى - على طريقة نسبة الجزء للكل فلأن الأصمعى كان يتبوأ فى عالم الرواية مكانة مرموقة تتفق معه سوق الكتاب المادية .

كتاب فعلت وأفعلت :

كان جزء من عناية الرواة ينصرف إلى التعريف بالصيغ المختلفة ، وخاصة تلك التى لم يطرد فيها القياس ، ومن كتب الأصمعى كتاب فعلت وأفعلت :

روى هذا الكتاب أبو حاتم السجستانى فيقول : سألت الأصمعى حرفاً حرفاً ، قال : يقول أكثر العرب : كننت الدر والجارية وكل شيء صُنْته - فأنا أكنُّها . وأنا كانٌّ . وهى مكنونة . وكذلك كل شيء فى معنى الصَّوْن .

وأكننت الحديث والشيء فى نفسى إذا أخفيته وهو مُكَنّ . وفى القرآن قول الله عز وجل : (كأنهم لؤلؤ مكنون) من كننت ، وقال تبارك وتعالى فى موضع آخر : (أو أكننتم فى أنفسكم) وقال جل شأنه : (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) .

وسمعت أبا زيد (الحديث لأبى حاتم) يقول : أهلُ نجد يقولون : أكننت اللؤلؤ والجارية فهى مُكَنّة - وكننتُ الحديثَ - وكلٌّ صواب .

---

(٥٥) المصدر ٩٠ .

هذه الإضافة التى أشار إليها أبو حاتم من كلام أبى زيد تكشف لك عن وجهين . الأول : ما كان يجنح إليه الرواة من إضافة ما يرونه مفيداً – والآخر : بيان الفرق بين الرجلين : إذ كان الأصمعى يلتزم بصيغة فعلت فى الفعل (كَنَّ) إذا كان المقصود بذلك الحفظ والصون ، لأنه سمع أكثر العرب تقول هذا ، أما صيغة أفعلت فتستعمل حين يريد القائل إخفاء الشىء فى النفس ، وجاء رأى أبى زيد مخالفاً لهذا إذ جوّز كننت ، وأكننت فى معنى الحفظ ، وفى معنى إخفاء الشىء فى النفس ، لأنه سمع ذلك من أهل نجد .

ومن بعض التفاصيل التى ذكرها الأصمعى فى (فعلت وأفعلت) قوله :

– يقال : صمت القوم ، ولا يقال أصمتوا إلا أن تقول أصْمَتُوا غيرَهم .

– يقال سلك فلان الطريق ، وأسلك فلان الطريق – أسلكه حمله على أن يسلك .

– طلعت الجبل ليس غير ذلك ، ولا يقال أطلعته .

– يقال جز شعره ، وأجز بشعره إذا حان أن يجز ، ومعناها مختلف ، إلى غير ذلك .

كتاب الأضداد :

رأيناه فى مجموعة أعدها أوجست هفنر تشتمل على كتاب للأصمعى وثان لأبى حاتم السجستانى ، وثالث لابن السكيت ، ورابع للحسن بن محمد بن الحسن الصغانى – وكلها فى الأضداد .

والكتاب يبحث فى الألفاظ التى يصح استعمالها على وجهين مختلفين ، ولا تكاد تتصفح الكتاب المنسوب للأصمعى فى الأضداد وتطمئن إلى طريقته وأسلوبه حين يورد اللفظ ويشرحه على وجوهه المختلفة ويحتجّ له بالشعر والرجز ، أو بإسناد الرواية إلى أستاذه أبى عمرو بن العلاء . وكل أولئك من سمات الأصمعى ولوازمه – لا تكاد ترى هذا حتى يضطرب الاطمئنان وتلمح تَوَسُّعاً لا يُقبل بنفس الراحة التى تصفحنا بها الصفحات الأولى : ذلك أننا نعلم من ملامحه الخاصة ما لا يتفق مع وجهة هذا الكتاب .

وهو عندما يروى عن أبى عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر الثقفى ، ويونس بن حبيب – أو عن أعراب يقول رأيتهم فى المربد أو البادية – فإن هذا مما يزيد فى طمأنينتنا ، ولكن عندما نراه يروى عن أبى عبيدة فإن من حقنا أن نتوقف ، وأن نشك بل نرفض هذه الرواية بعد أن عرفنا رأى كل منهما فى صاحبه ، ومثل هذا يقال عندما نراه يروى عمن يروى

عن أبي عبيدة .

وفى الكتاب روايات عن بعض اللغويين الذين يتأخرون عن الأصمعى كأبى عبيد القاسم ابن سلام ، كما نجد روايات لابن الأعرابى وهو كوفى المنشأ والتلقى وفى طبقة تلامذة الأصمعى .

وثمة شيء آخر هو الإستشهاد بآيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ ، والأصمعى كما سبق أن أوضحنا كان يتوقف توقفاً تاماً أمام نصوص القرآن لا يفسرها ، ويتحرّج من تفسير الحديث ، لهذا كان شذوذاً لنهجه أن نرى فى كتاب الأضداد إستشهاداً بالقرآن والحديث .

وإذا أردنا أن نستخرج مادة الأصمعى ، وأن نشير إلى ما دخل الكتاب من استطراد أو زيادة ما خلص لنا هذا العمل إلا بمشقة وعلى جهة التغليب ، وفى الكتاب مواد بكاملها وبنصوصها وشروحها تخرج عن نهج الأصمعى . من ذلك مادة (ناء) التى جاءت على النحو التالى :

ناء – قال الأثرم : أخبرنى أبو عبيدة قال : يقال : نؤت بالحمل : إذا نهضت مثقلاً . وناءنى الحمل : إذا أثقلك وغلبك ، وأنشدنى ابن الأعرابى :

إنى وجدك ما أفضى الغريم وإن حان القضاء وما رقت له كبدى
إلا عصا أرزن طارت برايتها تنوء ضربتها بالكف والعضد

أى تثقل ضربتها الكف والعضد . وشبيه بهذا البيت قوله تعالى : (ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة)[٥٦] أى تثقلهم .

ويصعب نسبة هذا الكلام للأصمعى ، والمادة تروى عن الأثرم عن أبى عبيدة ، واحتجاج لها بالقرآن الكريم .

وإذا وضعت كتاب ابن السكيت فى الأضداد فى مقارنة مع كتاب الأصمعى وجدت الكتابين يتشابهان . فالكتاب المنسوب للأصمعى يشتمل على خمس ومائة مادة جاء منها فى كتاب ابن السكيت تسع وثمانون مادة بنصها تقريباً .

والرأى عندى أنه كان للأصمعى معرفة واسعة بالأضداد حملها عنه طلابه فى مجالسه ، فلما جمعت فى كتاب خالطت غيرها ، وكان ابن السكيت من أكثر العلماء عناية بنقل علم الأصمعى إلى بغداد ، فبقى الكتابان ينسب أحدهما للأصمعى لغلبة مادته فيه ، والآخر لابن

(٥٦) القصص ٧٦ .

السكيت لما بذله من جهد فى جمعه ، وإلا فهو نتيجة لخلط الوزاقين .

كتاب النوادر :

لم يصل إلينا كتاب الأصمعى فى النوادر ، وكنت شديد الحرص على التعرف على منهج الأصمعى فى هذا الكتاب ، وجاهدت فى العثور على نقول أو نتف منه أو أخبار عنه ، وقد انتهيت فى هذا إلى شىء قليل : من ذلك أنه عمل كتابه هذا ، وأهداه إلى جعفر بن يحيى البرمكى ، وأن أبا محمد اليزيدى عمل كتاباً على نمطه فى النوادر[٥٧] . وذكر الأزهرى فى مقدمة التهذيب أن هذا الكتاب تسرّب إلى خزائن آل طاهر ، وأُدخل عليه زيادات كثيرة تزيد على ثلث الكتاب ، وكان ذلك فى حياة الأصمعى ، قال :

(كان الأصمعى أملى ببغداد كتاباً فى النوادر فزيد عليه ما ليس فى كلامه ، فأخبرنى أبو الفضل المنذرى عن سلمة قال : جاء أبو ربيعة صاحب عبد الله بن طاهر صديق أبى السمراء بكتاب النوادر المنسوب للأصمعى ، فوضعه بين يديه ، فجعل الأصمعى ينظر فيه ثم قال : ليس هذا كلامى كله ، وقد زيد علىّ فيه ، فإن أحببتم أن أعلمّ ما أحفظ منه ، وأضرب على الباقى – فعلت وإلاّ فلا تقرأه ؛ فأعْلَمَ الأصمعى على ما أنكر من الكتاب ، وهو أرجح من الثلث ، ثم أمرنا فنسخناه له)[٥٨] .

ويبدو أن كتاب الأصمعى كان يخالف غيره بأشياء كان ينفرد بروايتها ، وهذا ما أعطاه المنزلة التى تحدثوا عنها ، وجاء رجل كاليزيدى ليعمل على شاكلته . ولقد كتب الأصمعى كتابه هذا فى بغداد وقد جاوز الخمسين من عمره ، وبعد أن اكتملت له مقوماته وأصبح فى الصورة الناضجة التى لمحناها فى بلاط الرشيد ؛ كما نرجح أنه رضى عن كتابه واعتز به ووجده أمثل كتبه ، فأهداه لجعفر بن يحيى البرمكى كعمل نفيس .

الأصمعيات :

هى المختارات الشعرية التى جمعها الأصمعى ونسبت إليه ، نشرها المستشرق وليم الوردت فى ليبزج سنة ١٩٠٢ ضمن الجزء الأول من مجموع أشعار العرب ، ولم يقم أحد بنشرها – فيما

(٥٧) نزهة الألبا ١٠٥ .

(٥٨) مقدمة كتاب التهذيب للأزهرى .

أعلم – حتى سنة ١٩٥٥ م حين أعاد نشرها الأستاذان أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، وبينا فى مقدمة البحث ما تعرض له هذا المستشرق من الخلط والتصرف .

والذين أشاروا إلى مؤلفات الأصمعى لم يذكروا هذه المختارات باسمها المتعارف عليه الآن (الأصمعيات) : فابن النديم يقول : إن الأصمعى عمل قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها ، ولكن المختارات التى بأيدينا تكاد تكون من المعين الذى صدرت عنه المفضليات ، وهناك شعراء شاركوا فى المجموعتين كسنان بن أبى الحارثة ، وزبان بن سيار ، وعامر بن الطفيل ، والجميح الأسدى ، وحاجب بن حبيب الأسدى ، وسبيع بن الخطيم ، وربيعة بن مقروم ، وعبد الله بن عنمة الضبى ، وعبد قيس بن خفاف ، وأوس بن غلفاء الهجيمى ؛ وعوف بن عطية التيمى ، وتأبط شرا وغيرهم . شارك بعضهم بالقصائد نفسها أو بأجزاء ومقطعات ، ولبعض الشعراء قصائد فى المفضليات وأخرى فى الأصمعيات ، وهذا ما جعلنا نتشكك فى رأى ابن النديم عندما وصفها بقلة الغريب ، والقصر ، وعدم رضاء العلماء عنها :

أما القصر فالأصمعيات تشمل القصير الذى يتحدد بالبيتين والأبيات ، والطويل الذى تجاوز الأربعين بيتاً .

وأما اختصار روايتها فإننا نلحظ أن الرواية الأدبية ، واللغوية المسندة تكاد تنتهى عند الطبقة التى ينتمى إليها الأصمعى ، ومع هذا فهو تارة يقول : سمعتها من أبى عمرو ، وحسبك بشيخ الرواة ثقة وأمانة ؛ وطورا يذكر أنه سمعها من قائلها مباشرة ، ومرة ثالثة يقول : سمعتها من أحد الأعراب ، وهذا منتهى الطلب فى الإسناد فى الرواية .

أما بروكلمان – فالظاهر أنه راجع الأصمعيات وهو متأثر برأى ابن النديم فعلق عليها بقوله : (وقيل إن الأصمعيات لم تلق ما لقيته المفضليات وغيرها من الانتشار والقبول ؛ لأنها أقل اشتمالاً على غريب العربية ، ولأن الأصمعى عمد فيها إلى اختصار الرواية) ، وهذا قريب جداً من كلام ابن النديم .

وحاول بروكلمان التعليل لرأيه فقال : (إن المفضليات والقصائد التى اختارها حماد الراوية وسماها السموط أو المعلقات قد استنزفت هاتان المجموعتان أهم محصول القصائد التى لم تدون فى دواوين الشعراء الكبار حتى إن الأصمعى لم يجد إلا نخبة متواضعة من القصائد حين أراد جمع اختياراته) ، وأعطى مثالاً لذلك بمخطوط فينا الذى يشتمل على المفضليات

والأصمعيات ، ورأى أن الأخيرة لم تشتمل إلا على اثنتين وسبعين قصيدة ، ومجموع أبياتها ١١٦٣ وعدد شعرائها واحد وستون شاعرًا لم يسم منهم ثلاثة ، وهذا تعليل لا يعطى النتيجة التى يذهب إليها بروكلمان من أن معين الشعر قد نضب أمام الأصمعى ، وهو الذى كان يحفظ الآلاف من القصائد قبل أن يبلغ الحلم !

وتشابك الأصمعيات مع المفضليات لا يرجع إلى أنهما وجدا فى مجلد واحد ، ولكن هذا التشابك يعود إلى طريقة رواية المفضليات : يقول أبو الطيب اللغوى فى كتابه مراتب النحويين : إن المفضليات كانت ثمانين قصيدة ، فلما قرئت على الأصمعى صارت مائة وعشرين ، وربما تساءلنا عن سبب قراءتها على الأصمعى وصاحبها بها أولى ونجد الإجابة فيما تمدنا به الأخبار من أن المفضل لا يدعى لنفسه جمع المفضليات ، ولكنه يقول فيما يحكيه العباس بن بكار قال : قلت للضبى : ما أحسن اختيارك للأشعار فلو زدتنا من اختيارك فقال : والله ما هذا الاختيار لى ، ولكن إبراهيم بن عبد الله استتر عندى ، فكنت أطوف وأعود إليه بالأخبار فيأنس ويحدثنى ، ثم عرض لى خروج إلى ضيعتى أياماً فقال لى : اجعل كتبك عندى ؛ لأستريح إلى النظر فيها ؛ فتركت عنده قطرين فيهما أشعار وأخبار ، فلما عدت وجدته قد علم على هذه الأشعار ، وكان أحفظ الناس للشعر فجمعته وأخرجته ، فقال الناس : اختيار المفضل[٥٩] .

ولو سلمنا للمفضل بمهمة الجمع على وجه من الوجوه وجدنا خبراً آخر يرويه أبو الطيب اللغوى عن المفضل يقول فيه : (إنى لا أحسن شيئاً من الغريب ولا من المعانى ولا تفسير الشعر) فهل كان المفضل كذلك ؟ أنا فى شك من هذا : فقد كان المفضل على رأس علماء الكوفة – عالماً بالأخبار والشعر ، وأعلم من ورد على البصرة من رجال الكوفة ، كما يحكى محمد بن سلام الجمحى[٦٠] ، وله غير المفضليات كتاب فى الأمثال ، وكتاب فى معانى الشعر ، وكتاب فى الألفاظ ، وكتاب فى العروض ، ولكن السبب الذى من أجله قُرِئت المفضليات على الأصمعى أنه كان من تمام العالم أن يقرأ على أكثر من أستاذ . ومن جهة أخرى كان الناس يرجفون بعلم البصرة عامة والأصمعى خاصة ، فكان من المعقول أن تقرأ المفضليات على الأصمعى وأن يطرأ عليها التفسير والزيادة نتيجة لما يأتى به التفسير والشروح من

(٥٩) المزهر ٢ : ٣١٩ ط الحلبى .

(٦٠) طبقات فحول الشعراء ٢١ .

جديد ، وأن تدخل عند الأصمعى ثمانينَ قصيدة فتخرج من عنده مائة وعشرين وأن يختلط الأمر بعد ذلك بين ما هو للأصمعى وما هو للمفضل .

° ° °

هذا الذى عرفنا به من كتب الأصمعى قليل من كثير ، وهو يشير إلى ذلك بقوله : لما خرجت مع الرشيد إلى الرقة قال لى : هل حملت معك شيئاً من كتبك ؟ قلت : نعم ، حملت ما خف حمله ، فقال : كم ؟ قلت : ثمانية عشر صُندوقا ، فقال : هذا لما خففت ، فلو ثقلت كم كنت تحمل ؟ فقلت : أضعافها ، فجعل يعجب[٦١] .

ولا شك أن الأحداث التى مرت بالدولة العربية كالغزو المغولى ، وصعوبة النسخ ، وضن المؤلفين بإخراج كتبهم للتداول – كلُّ أولئك قد أسهم فى حرماننا من كثير من الكتب ، ونرجح أن كتب الأصمعى التى كان يحمل منها ثمانية عشر صندوقاً إذا خَفَّف قد تعرضت لما تعرضت له بقية الكتب العربية بعد الغزو التترى ، وكان أكثرها عرضة للضياع تلك الكراسات والكتب الصغيرة التى تحتوى على رسائل كرسائل الأصمعى : لقد بقى كتاب الحيوان للجاحظ ، وكذلك البخلاء ، والبيان والتبيين وغير ذلك من الكتب الكبيرة ، أما رسائل الجاحظ فلم يبق منها هى الأخرى إلا القليل ، وأكثر ما بقى كان مُدَوَّناً فى مجاميع ، وكذلك وصلنا من مؤلفات ابن قتيبة – أدب الكاتب ، وكتاب غريب القرآن والحديث ، وتأويل مشكل القرآن ، وكتاب المعارف وغير ذلك من كتبه الكبيرة ، أما كراساته فقد ضاع أغلبها . وكثير من النحاة كتبوا قبل سيبويه ، ولكن هذه الجهود كانت فى كراريس فضاعت أيضا ، وبقى كتاب سيبويه ، وكان أقدم ما وصلنا من كتب النحو .

ولقد دلت التجربة التاريخية على أنه فى الوقت الذى لم تكن فيه مطابع ، وأن العمل كان متروكاً للوراقين والنساخين – كان عملاؤهم يطلبون منهم أمهات الكتب ، والمراجع الكبيرة التى اشتهرت بمادة العلم الذى يبحثون عنه ، وكان فيها الغناء عن غيرها : فكان المهتمون باللغة مثلا يفضلون البدء باستنساخ كتاب العين أو الجمهرة – على الجرى وراء كراسات فى النخل أو الإبل أو ما شاكل ذلك ، كذلك الذين يحتفظون بمكتبات كبيرة يعمدون إلى إهمال الكتب الصغيرة والكراسات إذا وجدوا غناء عنها فى مجلد كبير ، وهذا الصاحب بن عباد كان

(٦١) الأغانى ٥ : ٦٤ ، وإنباه الرواة ١ : ٢١٧ ، ومعجم الأدباء ٦ : ٨ ترجمة إسحق الموصلى .

يستصحب معه ثلاثين جملاً محمّلة بكتب الأدب ، فلما وصل إليه كتاب الأغانى اكتفى به عن غيره .

ومن ناحية أخرى كان كثير من المؤلفين يحرصون على كتبهم ، ولا يسمحون بنسخها حتى يضمنوا صحة النص المنسوب إليهم ، إلى جانب ما ينشدونه من كسب مادى . وكان من حق الذى يقتنى نسخة من كتاب ثمين ألا يفرط أو يتساهل فى إقراضه أو بيعه إلا تحت ظروف قاسية : فلقد كان لأبى على القالى نسخة من الجمهرة بخط ابن دريد . وكان قد أعطى بها ثلثمائة مثقال ، فلما اشتدت به الحاجة باعها بأربعين مثقالاً ، وكتب عليها :

أنست بها عشرين عاماً وبعتها ... وقد طال وجدى بعدها وحنينى
وما كان ظنى أننى سأبيعها ... ولو خلدتنى فى السجون ديونى
ولكن لعجز وافتقار وصبية ... صغار عليهم تستهل شئونى
فقلت ولم أملك سوابق عبرتى ... مقالة مكوىّ الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ... كرائم من رب بهن ضنين

أما أبو عمرو بن العلاء ـ الذى كانت مؤلفاته تملأ بيتاً قريباً من السقف – فإنه أحرقها مخافة أن يكون فيها غير الصحيح .

كذلك نجد من أسباب ضياع معظم كتب الأصمعى أنها لا تشابه كتباً ككتب الجاحظ التى كتبت ، وألفت لأكثر من الخاصة ، فتعدد لذلك طلابها وحرصوا عليها أو استنسخوها ، أما كتب الأصمعى ففضلاً عن أنها رسائل صغيرة فقد كانت للخاصة من الباحثين فى اللغة ، ومن نوع يرتبط بالعلم البحت الذى لا يستهوى عامة الناس اقتناؤه .